المجلة العربية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Arab Journal for Humanities and Social Sciences
Impact factor isi 1.651
العدد الرابع والعشرون _ نيسان 2024

توظيف الشّخصيّات الجاهليّة في قصائد المدح الأندلسيّة

إعداد الباحث: حسن أحمد عبد العزيز الشيخ حمد

باحث في مرحلة الدكتوراه في جامعة الجنان – قسم اللغة العربية وآدابها

• مقدّمة:

لمعت في العصر الجاهليّ شخصيّات بارزة ومهمّة من عدّة نواحٍ وقضايا، جعلت منهم مضربًا للأمثال على مرّ العصور، برزوا في عدّة مجالات إنسانيّة، منها صفات أيضًا كالكرم الّتي اقترنت هذه الصّفة بشخص لمعَ في العصر الجاهليّ وأصبح مضربًا للكرماء، هو حاتم الطّائي، فبعد العصر الجاهليّ أصبح كلّ شاعر تقريبًا عندما يمدح شخصًا معروفًا بكرمه، يقرنهُ الشّاعر بحاتم الطّائي، وكذلك أصبح شعراء الجاهليّة مضربًا للأمثال عند شعراء العصور التّالية للعصر الجاهليّ، بل أكثر من ذلك أصبح شعراء العصور التّالية عامّة، والعصر الأندلسيّ خاصّة يوظّفون أبياتًا شعريّة من شعراء العصر الجاهليّ في قصائدهم، كنوع من الإحياء، وكذلك اقترنت صفة الشّجاعة في الشّخص الممدوح في القصائد الأندلسيّة بنوع قويّ من الحيوانات كالأسد مثلًا، وهو شيء معهود وموجود كذلك في الشّعر الجاهليّ، والصّبر اقترن بالجمل لصبره على البيئة الجافّة الصّحراويّة.

• الشخصيات التاريخية:

وسنبدأ بتوظيف الشّخصيّات التّاريخيّة في القصائد المدحيّة الأندلسيّة، ومن هذه الشّخصيّات – كما ذكرنا – حاتم الطّائي هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج، من طيء، وأمّه عنبة بنت عفيف، من طيء، وكان جوادًا وشاعرًا جيّد الشّعر، وكان حيث ما نزل عرف منزله، وكان ظفرًا، إذا قاتلَ غَلبَ، وإذا غنم نهب، وإذا سُئلَ وهب، وإذا ضربَ بالقداح سبق، وإذا أسَر أطلق. ومرَّ في سفره على عَنَزة وفيهم أسير،

فاستغاث به الأسير، فاشتراه من العنزيّين، وأقام مكانه في القدّ، حتّى أدّى فداءه، وكانت لحاتم قدورٌ عظامٌ بفدائه، لا تنزلُ عن الأثافي، وإذا أهلّ رجب نحر كلّ يوم وأطعم[1]، وغير ذلك من المكارم الّتي كان يفعلها هذا الشّاعر لخدمة أهل عصره في ذاك الوقت، لهذا أصبح مضربًا للأمثال في صفة الكرم على مرّ العصور، وخصوصًا في العصر الأندلسيّ، فأصبح الشّعراء عندما يمدحون خليفة أو ملكًا أو قائدًا يمتاز بصفة الكرم يشبّهونه بحاتم الطّائي دائمًا، فالشّاعر الأندلسيّ ابن هانئ الأندلسيّ، أنشد قصيدة يمدح فيها القائد جوهر قائد جند المنصور الفاطميّ[2]، تأصّل بقصيدته هذا في ذكر الكريم حاتم الطّائي، فيقول في ثنايا هذه القصيدة المدحيّة [الكامل]:

ولله أَضـــــــغان بُبرقَةِ ثَهمَدٍ *** وقد كَرَبَتْ تلك الشـــــموسُ لتَجنَحا
أَجـــــدِّكَ ما أنفَكُّ إلّا مُغَبْقًا *** بكأسِ النوى صـــــرِفًا وإلا مُصَّبحا
وأَبيضَ مـن سِرِّ الخلافةِ واضح *** تجلَّى فكان الشمسَ في رونق الضُّحى
عنيفٌ بَبذلِ الوَفرِ يَلـحي عُفاتَهُ *** علـــــى صفدٍ ما كان نُهزةَ من لحى
توخَّاهم قـــــبل السُّؤال تبرُّعًا *** بمعروفٍ مـــــا يُولي وسِيل فأنجَحا
صحا أهل هذا البذلِ مَّمنْ عَلمِته *** وأَمسكَ بالأموالِ نشوانُ مـــــا صَحا
ذروا حاتمًا عنَّا وكـــــعبًا فإنَّنا *** رأيناه بالدنيـــــا على الدين أَسـمَحا
أُريكَ به نهج الخلافةِ مَـــهيَعًا *** يُبيـنُ وأَعـــلامَ الخـــلافة وُضَّحـا
كثيرُ وجُوهِ الحَزم أَردى به العدى *** وأَنحـى بـه ليـثَ العَرِينَةِ فانتحـى[3]

فابن هانئ في هذه القصيدة، قد وظّف تاريخ الكرم عند العرب المتمثّل والمقترن بحاتم الطّائي، ولكنّ هذا التّوظيف لم يأتِ لتأصيل القصيدة، بل جاء للمبالغة في المدح، فالشّاعر يصف ممدوحه (جوهر) بأنّه أكثر وأعلى كرمًا، حتّى فاقت هذه الكثرة كرم حاتم الطّائي، وكذلك كرم (كعب)*، فكأنّما يقول الشّاعر، العرب كانت مبهرة بكرم حاتم وكعب بن مامة، إلّا أنّه يوجد شخص أكثر كرمًا وشجاعة منهم وهو هذا القائد، فجاء

---

[1] ديوان حاتم الطائي، تحقيق: حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1994م.

[2] ديوانه، ص8.

[3] ديوانه، ص73.

* هو كعب بن مامة بن عمر بن ثعلبة الايادي، أبو داود، كريم جاهلي، يضرب به المثل في حسن الجوار والكرم. ديوان ابن هانئ، ص73.

التّوظيف هنا للمقارنة وليس للتّأصيل أو الاعتزاز بالقديم. ونستنتج ذلك من قوله (ذروا)، أي اتركوا حاتمًا فقد جاء من هو أكثر منه كرمًا.

وفي موضع آخر نرى الشّاعر ابن هانئ الأندلسيّ، يوظّف شخصيّة حاتم الطّائي في قصيدة أخرى، ولكن في هذه القصيدة جاء توظيفًا بمعنى مختلف فيقول في قصيدة يمدح يحيى ابن علي الأندلسيّ [الطويل]:

وتنْظُرُ عُلْوًا أينَ منكَ وُفودُها *** كأنّكَ يومَ الركبِ للبرقِ شائم

فلا تخذلِ البدرَ المنيرَ الّذي بهِ *** سروا فله حقٌّ على الجودِ لازم

أيأخذُ منه الفجرُ والفجرُ ساطعٌ *** ويثبتُ فيه الليلُ والليلُ فاحم

علوتَ فلولا التاجُ فوقك شكَّكتْ *** تميمُ بنُ مُرٍّ فيكَ أنّك دارم

وجدتَ فلولا أنْ تشرّفَ طيّءٌ *** لقد قال بعضُ القوم إنّكَ حاتم

لك البيتُ بيتُ الفخرِ أنتَ عمودهُ *** وليس له إلاّ الرّماحَ دعائِم

أنافَ به أنْ ليس فوقكَ بالغٌ *** وشيّدهُ أنْ ليسَ خلفكَ هادم

وما كانتِ الدّنيا لتحملَ أهلها *** ولكنّكم فيها البحورُ الخَضارم

فمَهْلًا فقد أخرستمُونَا كأنّما *** ولكنكم فيها البحوُر الخضارمُ[4]

لصفة الكرم الموجودة لدى بعض الأمراء والقادة والخلفاء، جعل الشّعراء لا يواجهون المشاكل في مدحهم بهذه الصّفة، ودائمًا ما يقترن أو يقرنون هذا الشّخص بكريم العرب الأوّل حاتم الطّائي، وفي هذه القصيدة نرى الشّاعر، لوجود هذا الأمير يقول لهُ لولا أنّ قبيلة طيء موجودة هنا لتشرّفت بك، وقالت عنك إنّك حاتم الطّائي، قد وَلدَ من جديد وجاء وسكن هنا، أنّه أنت، لكرمك وفضلك على النّاس، وجاء التّوظيف

[4] ديوانه، ص308.

هنا، لاعتزاز الشّاعر وكتأصيل للممدوح بأنّه عربيّ أصيل يمتدّ في جذوره إلى حاتم الطّائي لكثرة كرمه وشجاعته وفي هذا التّوظيف اعتزاز الشّاعر بالقديم والموروث الجاهليّ، وتأصيلًا لقصيدته.

وفي قصيدة أخرى يمدح جعفر بن علي ويصف وقعة بقبيل، أيضًا الشّاعر فيها يستعين بالموروث الجاهليّ لتدعيم ما أراد إيصاله للممدوح، لنرى كيف وظّف ابن هانئ هذه المرّة الموروث الجاهليّ المتمثّل بصفة الكرم وصاحبها حاتم الطّائي، قال ابن هانئ [المتقارب]:

وذي لَجَبٍ يَرتَدي بالقَنَا *** ويعثرُ في العثيرِ المدلهمّ
وباتُوا يُرِيحُونَ كُومَ اللّقاحِ *** فصَبَّحَها وهي بَرْكٌ جُثْمْ*
فأضحى بحيثُ الرُّغاءُ الزّئيرُ *** وحالَتْ بحيْثُ الخيامُ الأجَم*
وأعطى القبيلَ سوامَ القتيلِ *** بما فيهِ من وبرٍ أو نعم
فلو ناقَةٌ عندَ ذاكَ انْثَنَتْ *** لتروي فصيلًا لجادتْ بدم
فمنْ حاتمٌ ثكلوا حاتمًا *** ومَنْ هَرِمٌ حيثُ عدّوا هَرِم
إذا هو أعطى البعيرَ الفريدَ *** برمّتهِ ... ظنّ أنْ قد كرم
وأنْتَ رأيْتُكَ تُعْطي الألوفَ *** فَتَنْهَبُ نَهْبًا ولا تَقْتَسِم
وكان إذا ما قرى بكرةً *** تَفَرّدَ بالجُودِ فيما زَعَم
وأنتَ تجودُ بمثلِ البكارِ *** من التّبرِ في مثلها منْ أدم
إذا عربٌ لم تكنْ في الصّميمِ *** ممـــن نَمتَك فتلك العَجَمْ[5]

جاء توظيف ابن هانئ في هذه القصيدة فيه نوع من القساوة في نظري، القساوة جاءت بحقّ كريم العرب الأوّل (حاتم الطّائي)؛ لأنّ الشّاعر هنا يقول النّاس مبهورون ومعجبون بكرم شخص ألا وهو حاتم الطّائي، فمن هو هذا الشّخص بجنبك، أنت أكرمُ منه في كلّ شيء، ويقول إذا كان حاتم قد جاد ببعير واحدة مميّزة أصبح من أكرم العرب، فما بال النّاس في شخص يجود بآلاف البعير ولا يقتسم شيئًا لنفسه من هذه الإبل، وكذلك إذا دخل المعركة وانتصر فيها وكسب الغنائم، لا يأخذ شيئًا لنفسه، بل يجود بها كلّها للنّاس

* الكوم: القطعة المجتمعة من الإبل، بركَ: باركة في أماكنها.
* الرغاء: صوت الإبل، صالت: أي تحولت. ديوانه، ص300.
[5] ديوانه، ص300، 301.

فمن هو الجواد والكريم، أنت أم حاتم الطّائي، لا إنّ الكريم هو أنت فليذهب وليثكل النّاس حاتمًا ويستعيضون عنه بك أنت كريم العرب. فلهذا أعتقد أنّ الشّاعر قد قسى على حاتم بهذه القصيدة، فالتّوظيف جاء هنا كنوع من المقارنة ما بين جعفر بن علي وحاتم الطّائي، وجعل الغلبة في هذه المقارنة لممدوحه وأثره على حاتم الطّائي الذي عَدُه العرب كريم العرب الأوّل، والذي اقترنت به صفة الكرم، فكما نعلم أنّه لا تذكر صفة الكرم إلّا وجاءت مقرونة به، فكان على الشّاعر مهما كان ممدوحه يمتاز بالكرم الشّديد والكبير، أن لا يتعدّى على موروثه القديم وكأنّ الشّاعر أراد دحض صفة الكرم عن حاتم الطّائي، وجعلها مقرونة بممدوحه (جعفر)، ومهما كان الأمر، إلّا أنّ التّاريخ لا يمكن أن يتغيّر.

بعد أن استعرضنا كيف وظّف الشّعراء الأندلسيّون شخصيّة حاتم الطّائي في قصائدهم المدحيّة، سنرى الآن كيف استفاد ووظّف هؤلاء الشّعراء شخصيّات الشّعراء الجاهليّين في شعرهم، كنوع من التّأصيل والاعتزاز بالتّراث القديم من خلال ذكرهم لشخصيّات من العصر الجاهليّ، هذه الشّخصيّات اشتهرت في ذاك العصر بنظمها للشّعر. ومن شعراء الأندلس الذين وظّفوا شخصيّات امتازت بالشّعر في العصر الجاهليّ، الشّاعر ابن هانئ الأندلسيّ يقول في قصيدة يمدح فيها الخليفة المعزّ لدين الله ويصف الخيل وشدّة شغفه بها، وفي هذه القصيدة سنرى كيف وظّف الشّاعر لشاعر من أهل الجاهليّة [المتقارب]:

وتعلمُ نجوَى قلوبِ العِدَى *** وسِرَّ الأحِبّةِ يوْمَ النّوَى
فأبْعدُ مَيْدانِها خُطْوَةٌ *** وأقْرَبُ ما في خُطاها المَدَى
ومِنْ رِفْقِها أنّها لا تُحَسُّ *** ومِنْ عَدْوِها أنّها لا تُرَى
جرَينَ من السّبْقِ في حَلبَةٍ *** إذا ما جرَى البْرقُ فيها كَبَا
إذا أنتَ عدّدْتَ ما يُمتَطَى *** وقايَستَ بَينَ ذواتِ الشَّوَى
فهْنّ نَفائسُ ما يُستَفادُ *** وهُنّ كَرائمُ ما يُقتَنَى
دِيارُ الأعِزّةِ لكِنّها *** مُكَرَّمَةٌ عن مَشيدِ البِنَا
ومن أجلِ ذلك لا غَيرِهِ *** رأى الغَنَويُّ بها ما رَأى
وكانَ يُجيدُ صِفاتِ الجِيادِ *** وإنّ بها اليْومَ عنهُ غِنَى
أَليسَ لها بالإمامِ المُعِزّ *** من الفخرِ لوْ فخرَتْ ما كفَى
هوَ استَنّ تَفضيلَها للمُلوكِ *** وأبْقَى لها أثَرًا في العُلَى[6]

[6] ديوانه، ص26.

فالشّاعر ابن هانئ في هذه القصيدة يمدح خليفة أندلسيًّا، هو المعزّ لدين الله، الذي كان معروفًا بحبه للخيل، وكثرة اهتمامه بها، كما كان يفعل أهل الجاهليّة الأوائل، ولحسن المقام وبالكلام عن الخيول، ولثقافة الشّاعر العالية ولمعرفته أنّ حبّ الخيول هو تقليد معروف عند العرب فرأى ابن هانئ أن يوظّف شاعرًا جاهليًا كان قد اشتهر بحبّه للخيول وقد كثر ذكرها في شعره، هو الشّاعر الجاهليّ، طفيل بن عوف بن كعب، ويكنّى أبا قرآن، من بني غنيّ من قيس عيلان (13 ق.هـ/ 609م) شاعر جاهليّ فحل، من الشّجعان وهو أوصف العرب للخيل، وربّما سمّي (طفيل الخيل)، لكثرة وصفه لها، عاصر النّابغة الجعدي وزهير بن أبي سلمى ومات بعد مقتل هرم بن سنان[7].

فتوظيف ابن هانئ هنا جاء من اعتزازه بالشّعراء الجاهليّين، وكذلك لتشبيه ممدوحه من ناحية اهتمامه بالخيل، بأشهر شخصيّة عرفها التّاريخ في كثرة وصفها للخيل وهو الشّاعر الغنويّ. وكما كان الغنويّ أعلم العرب بالخيل وأوصفهم لها، فكذلك الخليفة المعزّ، كان على علم كبير واهتمام واسع بالخيل وحبّه لها، ووصفه لها في أقواله وكلامه.

وفي قصيدة أخرى يمدح ابن هانئ فيها جعفر بن علي الأندلسيّ، نرى توظيفًا آخر لشاعر جاهليّ فيقول في هذه القصيدة [الكامل]:

لا جادَ غيرَكمُ السحابُ فإنّكُمْ *** كنتمْ لذيذَ العيشِ غيرَ مُنغّص
كم في سُرادقِ مُلكِكم من ماجدٍ *** عَمَمٍ وفينا منْ وَليٍّ مُخلِص
قد غَصَّ بالماءِ القَراحِ وكان لوْ *** يُسقَى المُثمَّلُ عندكم لم يَغصَص
وإذا استكانَ منَ النّوَى وعذابِها *** فإلى لسانٍ في الثناء كمِفرَص
صُنْعٌ يؤلَّفُ من نظامِ كواكبٍ *** طلعتْ لغيرِ كُثَيِّرٍ والأحوص
مُتبلِّجاتٌ قبل في أزدِيّهَا *** ما قيل في أسْدِيَةِ ابنِ الأبرص
هل ينَهيَنّي إنْ حرصْتُ عليْكُمُ *** فأتَى على المقدار من لم يحرِص
من قال للشِّعرى العَبور كذا اعبُري *** كرهًا وقال لأختها الأخرى اغمصي(8)

[7] الأصفهاني، أبو فرج: الأغاني، نسب الطفيل الغنوي وأخباره، ص15/ 338.

[8] ديوانه، ص173.

فالشّاعر ابن هانئ يوظّف في قصيدته لأكثر من شاعر في قصيدته هذه، فمنهم الشّاعر كُثير بن عبد الرّحمن بن الأسود، وكذلك الشّاعر عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاريّ، وهما من شعراء العصر الأمويّ، وهذا نوع من التّوظيف ولكنّ هذا التّوظيف لا يهمنا؛ لأنّه ليس زمن دراستنا، والذي يهمّنا هو الشّاعر الثّالث الذي ذكره ابن هانئ في قصيدته هذه، ألا وهو الشّاعر **الأبرص** وهو: عبيد بن الأبرص الأسديّ شاعر فصيح اللّفظ، وكان شاعر بني أسد، شهمًا كريمًا مع ضيق ذات يده، مضريّ من معد بن عدنان، وكان معاصرًا لامرئ القيس[9].

وعبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسديّ من مضر، أبو زياد، شاعر من دهاة الجاهليّة وحكمائها، وهو أحد أصحاب المجمهرات، المعدودة طبقة ثانية عن المعلّقات[10]، وعُمرًا طويلًا حتّى قتله النّعمان بن المنذر وقد وفد عليه يوم بؤسه وذلك نحو سنة 25 ق.هـ[11].

وذكر شاعر آخر من شعراء الجاهليّة الأوائل هو الشّاعر لبيد بن أبي ربيعة في قصيدة يمدح فيها يحيى بن علي الأندلسيّ يقول فيها [السريع]:

قَعَدَ الزّمانُ عن المكارم والعُلى *** إنَّ الزّمان السَّوءَ غيرُ رشيد
حسبي مدى الآمال يحيَى إنّهُ *** أمْنُ المَرُوعِ وعصْمةُ المنجود
لقد اغتدَى والمجدُ فوق سريره *** والغيثُ تحت رِواقِهِ الممدود
أوحَشتَنا في صدرِ يوْمٍ واحِدٍ *** وأطَلتَ شوقَ الصافناتِ القود
وأقلُّ منه ما يُضرّمُ لوعتي *** ويحولُ بين الصَّبرِ والمجلود
لِمَ لا وقد ألبَستَني النِّعَمَ التي *** لم تُبقِ لي في الناس غيرَ حسود
حمّلتَني ما لا أنُوءُ بحَمْلِهِ *** إلاّ بعَوْنِ اللهِ والتَّأييد
لولا حياتُكَ ما اغتبطتُ بعيشةٍ *** ولوَ انّني عُمِّرْتُ عُمْرَ لَبيد
أهدى السلامُ لك السلامَ وإنّما *** عَيشُ الوَدود سلامَةُ المَودود
أوَما ترى الأعمارَ لو قُسمتْ على *** قَدْرِ الكِرام لَفُزْتَ بالتَّخليد
أنتَ الذي ما دام حيًّا لم يكُنْ *** في المُلكِ من أمْتٍ ولا تأويد(12)

---

[9] الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص323.

[10] ديوانه، ص173.

[11] الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص324.

في هذا التّوظيف الّتي استخدمه ابن هانئ في قصيدته المدحيّة هذه، جاء بذكر الشّاعر الجاهليّ لبيد بن أبي ربيعة وتذكر كتب التاريخ، بأن هذا الشّاعر قد عاش من العمر، سنيين طويلة جدًا، ما يقارب 120 عامًا، يقول صاحب الدّيوان: أدركته منيّته في خلافة عثمان بن عفّان (رضي الله عنه)، بعد أن أوصى أن يسجى بثوبه وتستقبل به القبلة وتحمل جفنتاه إلى المسجد ليطعم النّاس منهما، وقد اختلف في عمره يوم مات، فهو في رأي المكثرين 157 سنة، وفي رأي المقلّين لا يقلّ عن 110 سنة[13]. فكانت غاية الشّاعر ابن هانئ من هذا التّوظيف هي ضرب المثل بالسّنين الّتي عاشها هذا الشّاعر من عمره، والجميل في هذا التّوظيف، أنّنا لو ضربنا التاريخ وبحثنا في طياته لوجدنا الكثير من رجالات العصر الجاهليّ قضوا من عمرهم من السنين أكثر أو مقدار ما قضاه الشّاعر لبيد، ولكنّ الشّاعر ابن هانئ جعل من الشّاعر لبيد مضربًا لمثله؛ وذلك باعتقادي، لأنّ لبيد هو شاعر فارس فحل من شعراء الجاهليّة بالإضافة لكونه أدرك عصرين الجاهليّة والإسلام، ولتوظيفه في مثل هذه القصيدة يزيد من القوّة والأصالة على معنى قصيدة ابن هانئ، أفضل من أن يذكر شخصًا جاهليًّا قد لا يكون مشهورًا ومعروفًا كشهرة لبيد ابن أبي ربيعة.

وفي قصيدة أخرى يمدح فيها نفس القائد أو الخليفة يحيى بن علي الأندلسيّ، ونجد توظيفًا آخر في هذه القصيدة، علمًا أنّ الممدوح في كلتا القصيدتين هو نفس الشّخص، فيقول في قصيدته هذه [الكامل]:

ورأى الخليفةُ منك بأسَ مُهَنَّدٍ *** بيديه من رُوحِ الشُّعاعِ سبيك
وغدتْ بك الدنيا زَبَرْجَدَةً جلَتْ *** عن ثغْرِ لؤلؤةٍ إليك ضَحُوك
يَدُكَ الحميدةُ قبل جودك إنّها *** يَدُ مالكٍ يَقضي على مملوك
صَدَقَتْ مُفَوَّفَةَ الأيادي إنما *** يوماكَ فيها طُرَّتا دُرْنُوك
الشِّعْر ما زُرّتْ عليك جُيوبُهُ *** من كلِّ مَوْشيِّ البديعِ مَحوك
والفَتْكُ فَتْكٌ في صميمِ المالِ لا *** ما حدّثوا عن عُرْوَةَ الصُّعْلوك
وأرى الملوكَ إذا رأيتُكَ سُوقَةً *** وأرى عُفاتَكَ سُوقَةً كمُلوك
الغيثُ أوّلهم وليْسَ بمُعْدِمٍ *** والبحرُ منهُم وهو غير ضريك[14]

---

[12] ديوانه، ص104،105.
[13] ديوانه، ص11.
[14] ديوانه، ص231.

ابن هانئ في توظيفه ضرب نوعًا خاصًا من شعراء الجاهليّة، وهو الشّاعر الصّعلوك عروة بن الورد، وهو شاعر جاهليّ عُرف كونه صعلوكًا في الجاهليّة، أي من قاطعي الطّرق والسّلب، ولكن ابن هانئ أراد من خلال توظيفه هذا ضرب مثل بعروة الصّعلوك، ليس لكونه سالبًا لأموال النّاس بالباطل، بل ما كان معروفًا عن هذا الشّاعر الصّعلوك أنّه كان ثائرًا على الأغنياء، ثورة مهذّبة إذ لم يتحوّل إلى سافك دماء ولا إلى متشرّد يرود مجاهل الصّحراء، فقبيلته لم تخلعه، بل ظلّ ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة كانت تروّع معاصريه ومن جاءوا بعده، إذ اتّخذ من صعلكته بابًا من أبواب المروءة والتّعاون الاجتماعي بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها، ومن أجل ذلك لقّب عروة الصّعاليك لجمعه إيّاهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم وضاقت بهم الدّنيا[15].

فتلك الصّفات كانت هي صفات القائد الهمام، الّتي لولاها لما أصبح عروة بن الورد قائدًا للصّعاليك، فلذلك وظّف الشّاعر ابن هانئ هذا الشّاعر في مدحه للقائد يحيى، ليأصّل من قصيدته المدحيّة هذه، فكأنّما يقول له أنت ناصر الضعفاء ومعطيهم من الغنائم ما يكفيهم لقوّتهم، كذلك أنت خير قائد لجيشك تشدُ من أزرهم وقت الحروب، وتساعدهم على اجتياز اليأس في حال عدم انتصارهم في معركة من المعارك، فكأنّك عروة الصّعلوك في قيادة الصّعاليك، وكأنّك عروة الورد في مساعدة الفقراء والمحتاجين ولو أنّ عروة الورد يضرب به المثل في القيادة والتّسامح والكرم، الذي قال عنه عبد الملك بن مروان: من قال إن حاكمًا أسمح النّاس فقد ظلم عروة بن الورد[16]. لكنّك يا يحيى قد نافست هذا الرّمز التّاريخيّ في القيادة والتّسامح في قيادة جيوشك، وكذلك في كرمك في إطعام الفقراء.

[15] ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي، ص383.

[16] ديوان ابن هانئ، ص231.

وفي قصيدة أخرى يمدح فيها ابن هانئ أبا فرح الشّيبانيّ نجد توظيفًا للتّراث القديم في شعره فيقول فيما جاء من هذه القصيدة [البسيط]:

فلو تَراهُ غَدا بالصّقْرِ أشْبهَ مِنْ *** جوانحي بقَطًا في الجَوّ كُدْريّ
ثَقِفتُ منهُ أديبًا شاعرًا لَسِنًا *** شَتَى الأعاريضِ محذورَ الأحاجي
وكالسّنانِ الذي يهتَزُّ في يَدِهِ *** ومثلَ أجدَلِهِ الصّقرِ القُطامي
مُستَطلِعًا لجَوابي من بَديهتِهِ *** فما يُجاوبُهُ مثْلُ النُّواسي
مَن لا يُفاخِرُ بالطائيّ في زَمَنٍ *** ولا الخُزاعِيّ في عصرِ الخُزاعيّ
ولا الفَرَزْدَقِ أيضًا والفَخَارُ لَهُ *** ولا جَريرٍ ولا الرّاعي النُّمَيْري
لكنْ بعَلقَمَةَ الفَحلِ الذي زعموا *** في الشعر أو بامرىء القيس المُراريّ
ولا ينُازِلُ لا بابنِ الحبابِ ولا *** جِذْلِ الطّعان ولا عَمرو الزُّبَيدي
لكن بفارسِ شيبانَ الذي سجدتْ *** إليه فُرسانُ عَتّابٍ وذُعمي
قريبُ عهْدٍ بأعرابِ الجَزيرةِ لم *** ينطِق بِدارًا ولم يُنسَبْ إلى عِيّ
مَن ليس يألَفُ إلاّ ظِلّ خافقَةٍ *** أو سَرْجَ سابِقَةٍ أو رَحلَ عِيديّ
لا يشرَحُ القوْمُ وحشيَّ الغريب لهُ *** ولا يُسائِلُ عن تلك الأحاجيّ(17)

أثر التّراث القديم في هذه القصيدة جاء بأسماء شعراء كثيرين جدًّا بدأهم الشّاعر ابن هانئ، بالشّاعر أبي نوّاس وختمهم بالشّاعر الجاهليّ امرؤ القيس والذي يهمّنا من هذه الأسماء للشّعراء هما علقمة الفحل وامرأ القيس، وقبل أن أدخل في تعريف هؤلاء الشّعراء، سأتكلّم عن السّبب الذي دعا الشّاعر لاستخدام كلّ هؤلاء الشّعراء في شعره، ابن هانئ هنا يمدح القائد أبا الفرح الشّيبانيّ، وأراد من خلال مدحه هذا أن يثبت أنّ ممدوحه هذا كان من الفصاحة والبلاغة وسرعة البديهة والارتجال ما يجعله في المرتبة الأولى بالفصاحة، فيقول لو سألت سؤالًا فيجيبني ببديهة لا يستطيع لا أبو نوّاس ولا الخزاعيّ ولا غيرهم أن يأتوا بجواب مثل جوابه هذا، وله من الفصاحة والبلاغة والبديهة والارتجال والنّظم في الكلام، ما لا يستطيع حتّى علقمة الفحل الذي كان مضرب الأمثال في الفصاحة والبلاغة، ولا كذلك امرؤ القيس صاحب أوّل معلّقة في العصر الجاهليّ وصاحب أوّل تشبيهات في الشّعر وكلّ النّقاد أشادوا بشاعريّة وفصاحة الشّاعر امرئ القيس إلّا أنّه لم يصل إلى المنزلة الّتي احتللتها أنت في فصاحتك وبلاغتك.

(17) ديوانه، ص342.

-**علقمة الفحل هو:** علقمة بن عبدة بن النّعمان بن ناشرة بن قيس بن ربيعة، شاعر جاهليّ من الطّبقة الأولى، كان معاصرًا لامرئ القيس وله معه مساجلات[18].

-**امرؤ القيس هو:** امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكنديّ من بني آكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، كان أبوه ملك أسد وغطفان وأمّه أخت المهلهل الشّاعر، فلقّنه المهلهل الشّعر، فقاله وهو غلام، وجعل يشبُّ ويلهو ويعاشر الصّعاليك العرب[19]. وأنّه يعدّ أبًا للشّعر الجاهليّ بل للشّعر العربيّ جميعه، فقد استوى عنده في صورة رائعة سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها، أو من حيث قدرته على الوصف والتّشبيه، وقد مضى يعنى بأخليلته ومعانيه وألفاظه ما نجده ماثلًا في استعاراته وبعض طباقاته وجناساته[20]، لذلك كلّه كان الشّاعر امرؤ القيس أوّل وأبرز شعراء عصره وبذلك استغلّ ابن هانئ هذه الصّفات في شعر امرؤ القيس ليثبت أنّ ممدوحه هو أبلغ وأفصح من هؤلاء الشّعراء الذين ذكرهم جميعًا.

والشّاعر ابن دراج يوظّف في قصيدته الّتي يمدح فيها المرتضى آخر ملوك بني مروان، وهو عبد الرّحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرّحمن النّاصر، وكان قد ألجأته الفتنة القرطبيّة إلى بلنسيّة حيث قام بأمره خيران العامريّ ومنذر بن يحيى التّجيبيّ في سنة 407هـ، ثم بويع على الخلافة بعد أن خُلع علي بن حمود، ثم جمع جيشًا كبيرًا انضمّ إليه بعض الإفرنج (من أهل برشلونة)، وساروا إلى قرطبة لمحاربة الخليفة العلويّ بها. وانهزم جيشه، وكان سبب هزيمته هو غدر مواليه العامريّين به بتدبير من خيران العامريّ ومنذر التّجيبيّ[21].

---

[18] ديوان علقمة الفحل، بقلم أحمد الصقر، ص2.

[19] ديوان امرؤ القيس، محمد أبو الفضل ابراهيم، ص7.

[20] ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص265.

[21] ديوان ابن دراج، تحقيق: محمود علي مكي، ص84.

ففي هذه القصيدة وظّف الشّاعر ابن دراج شاعرًا من شعراء الجاهليّة هو (السّموأل) إذ قال في هذه القصيدة [الطويل]:

شَديدُ مِحال الرُّمحِ فيكَ أَبيُّهُ *** مُبِرُّ خِصامِ السَّيفِ عَنكَ أَلَدُّهُ
رضاكَ لَهُ يَا مُرتضى دينُ وَاثِقٍ *** بأَنَّكَ للدينِ الحَنيفِ تعدُّهُ
وما يَزْدَهِيهِ مِنكَ دهْرٌ يسُودُهُ *** إذَا لَمْ تُجرِّدْهُ لِثَغْرٍ يَسُدُّهُ
يَوقِّرُ عنكُمْ سَمْعُهُ فيُصيخُهُ *** ويَقصُرُ عَنْكُمْ طَرْفُهُ فَيَمُدُّهُ
وعهدُكَ بالآمالِ تَصْرِفُ عَنكُمُ *** ورَدَّاكُمُ عَهدَ السَّموْأَلِ عَهْدُهُ
وكم حَلَّ مَوتُ الحَقِّ من شَدِّ عَقدِكم *** ويُحيي ابْنُ يَحْيى عَقدَكُمْ فَيَشُدُّهُ
وإنْ ماتَ مَوْتُ اليَأْسِ منكُم رَجاؤُهُ *** تَنَسَّم فيكُم روحَهُ فيَرُدُّهُ[22]

الشّاعر ابن دراج في هذه القصيدة استخدم التّراث القديم ووظّفه لشعراء العصر الجاهليّ في قصائده، استعان هنا بالشّاعر اليهودي الجاهليّ السّموأل وهو: السّموأل بن غريض بن عادياء بن رفاعة بن الحارث الأزديّ[23]؛ وذلك كون حياة هذا الشّاعر فيها نوع من التّشابه ما بينه وبين ممدوح ابن دراج في قصيدته، ولم يكن هذا التّشابه من ناحية الشّعر؛ لأنّه كما هو معروف أنّ ممدوح ابن دراج شاعر، بل كان ملكًا وقائدًا لجيش كبير، يتحصن داخل الحصون، فبذهابه إلى بلنسيّة ثم عودته بجيش كبير إلى قرطبة، هذه عمليّة الانتقال من مكان إلى آخر، من دويلة إلى أخرى يشابه لحدّ كبير حياة الشّاعر الجاهليّ، فالسموأل كما هو معروف عنه كان يملك حصنًا في شمال الجزيرة العربيّة، فهو من سكّان خيبر، وكان ينتقل بينها وبين حصن له سمّاه (حسن الأبلق) في تيماء[24].

فهذا الانتقال هو ما أراده ابن دراج ليوظفه في قصيدته، ولكن بتميّز خاصّ لممدوح ابن دراج، فيقول له إنّ عهد السّموأل قد انتهى وتلاشى أمام عهدكم الجميل، الذي يمتاز كونه ماءً للعطشان وأنت للنّاس كمنقذ لهم من الضّياع والفقر وكذلك منقذ لهم من أهوال الفتنة الّتي ضربت بهم.

---

[22] ديوانه، ص83.

[23] ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود شاكر، ج2/ 229.

[24] م.ن، ج2/330.

بعد أن استعرضنا كيف وظّف شعراء الأندلس لشخصيّات الشّعراء الجاهليّين في قصائدهم كنوع من الاعتزاز والتّأصيل لقصائدهم المدحيّة، وكذلك كيف ربطوا بين صفة كرم ممدوحيهم بحاتم الطّائي الجواد الأوّل في العصر الجاهليّ، سنتعرّض الآن كيف وظّف الشّعراء الأندلسيّون، شخصيّات تاريخيّة في شعرهم، وخصوصًا في قصائد المدح، وهذه الشّخصيّات لم تكن على علم كبير بالشّعر، بل كان لها دور بارز في العهد الجاهليّ، بصفات مختلفة.

فالشّاعر ابن هانئ الأندلسيّ، في قصيدة يمدح فيها القائد الأندلسيّ جعفر بن علي الأندلسيّ – الذي مرّ ذكره كثيرًا في هذه الرّسالة – وظّف الشّاعر ابن هانئ شخصيّة تاريخيّة كانت مشهورة في العصر الجاهليّ؛ وذلك لأنّه كان يمتاز بنوع خاصّ من الأعمال الّتي ميّزته في عصره، فيقول ابن هانئ [الكامل]:

قطرتْ غلائلُهم دمًا وخُدودهُم *** خَجَلًا فراحوا بالجمال مخضَّبا
قد صُرّ آذانُ الجيادِ توجّسًا *** وكتمْنَ إعلانَ الصّهيلِ تَهَيُّبا
وغدا الذي يَلقى ندامى ليلِه *** متبسّمًا في الدارِعينَ مُقطِّبا
ويكلّفُ الأرْماحَ لِينَ قوامِهِ *** فيذمُّ ذا يَزَنٍ ويَظلِمُ قَعْضَبا
كِسرَى شَهِنشاه الذي حُدّثتَه *** هذا فأين تَظُنُّ منه المَهْرَبا
مَن لا يَبيتُ عن الأحِبّةِ راضيًا *** حتى يكونَ على الفوارسِ مُغضَبا
مَنْ زِيُّه أنْ لا يجيءَ مُقَنَّعًا *** حتى يَقُدّ مُتَوَّجًا ومَعُصَّبا[25]

ففي هذه القصيدة استعان ابن هانئ في قصيدته المدحيّة بشخصيتين من العصر الجاهليّ، لكلّ واحد منهما صفة خاصّة، جعلت منهما مشهورين في ذاك الوقت، فذي يزن هو ذو يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن العرنجج وهو حمير بن سبأ[26]، وهو أحد ملوك اليمن العرب، وابنه سيف أحد أشهر الملوك، يعود الفضل إليه في طرد الأحباش من اليمن بعد أن ظلّوا يحكمونه منذ عهد ذي نوّاس حتّى أوائل القرن السّادس[27].

[25] ديوانه، ص45.
[26] ابن كثير: كتاب البداية والنهاية، ج2/125.
[27] ابن كثير: كتاب البداية والنهاية، ج2/ 128.

وقَعضب: وهو اسم رجل كان يعمل الأسنة من بني قشير وهو زوج ردينة[28].

فالشّاعر ابن هانئ يوظّف ملكًا من ملوك الجاهليّة؛ وذلك لأنّ ممدوحه ملك وقائد للجيش، وكذلك هو بارع في استخدام السّيف والرّماح في الحرب، وليست أيّ رماح بل الرّماح الردينيّة الّتي عُرفت على مرّ العصور بقوّتها ونسبت إلى من اشتهر بصنعها في الجاهليّة، وقضعب هو أشهر شخصيّة جاهليّة اشتهر بصنع الأسنّة وكذلك الرماح، وزوجته (ردينة) الّتي تنسب إليها صناعة الرّماح الردينيّة، وهذا الشّخص ذكره امرؤ القيس في إحدى قصائده، واستغلّ ابن هانئ هذا الشّيء ليضفي لقصيدته نوعًا من التّأصيل والتّأكيد على قوّة ممدوحه، إذ قال امرؤ القيس في قصيدة [الطويل]:

وَقُلنا لِفِتيانٍ كِرامٍ أَلا اِنزِلوا *** فَعالوا عَلَينا فَضلَ ثَوبٍ مُطَنَّبِ
وَأَوتادَهُ مـاذَيَّةٌ وَعِمـادُهُ *** رُدَينِيَّةٌ بِها أَسِنَّةُ قُعضُبِ
وَأَطنابَهُ أَشطانُ خوصٍ نَجائِبٍ *** وَصَهوَتُهُ مِن أَتحَمِيٍّ مُشَرعَبِ[29]

وفي نفس القصيدة ذكر الشّاعر ابن هانئ شخصيّة تاريخيّة قديمة من العصر الجاهليّ، فقال [الكامل]:

لستُ الخطيبَ المسهَبَ الأعلى إذا *** ما لم أكنْ فيكَ الخَطيبَ المُسهبا
لو كنتَ حيثُ تَرى لساني ناطقًا *** لرأيتَ شِقْشِقةً وقَرمًا مُصْعَبا
إنّا وبكرًا في الوغى لبنو أبٍ *** وإن اختلَفْنا حينَ تَنسِبُنا أبَا
قومٌ يعمُّ سَراةَ قومي فخرُهم *** ويخُصُّ أقربَ وائلٍ فالأقربا
أحلافُنا حتى كأنّ ربيعةً *** من قبل يعرُبَ كان عاقدَ يَشجُبا
ذَرْني أُجدّدْ ذلك العهدَ الذي *** أعيا على الأيامِ أن يَتَقَشّبا
فلَقَد عَلمتُ بأنّ سيفي منهمُ *** بيديّ أمضى من لساني مضربا[30]

ويستمرّ الشّاعر ابن هانئ في مدح جعفر بن علي الأندلسيّ، حتّى يصل به المطاف إلى تعزيز أصل هذا الممدوح، ويبيّن أن قبيلة الشّاعر متحالفة مع قبيلة الممدوح، في كلّ الأوقات في السّلم، والحرب، والفرح، والحزن، فهو من قبيلة موالية له، وهو معه في أوقات الحرب، كما كانت قبيلة ربيعة مع قبيلة يشجب

[28] ديوان امرؤ القيس، ص53.
[29] ديوان امرؤ القيس، ص53.
[30] ديوانه، ص48.

متّحدتان، فجاء التّوظيف هنا في هذا الموضع، كضرب من المثل على الاتّحاد والموافقة الّتي كانت معروفة في العصر الجاهليّ، فكانت القبيلتان تتحالفان فيما بينهما، فتلتزم كلّ قبيلة الوقوف مع القبيلة المتحالفة معها في أوقات الحرب، وكذلك في كلّ الأوقات الفرح والحزن وغيرها من الأمور الّتي كانت تتعرّض لها القبائل في الجاهليّة، فكأنّما يقول الشّاعر ابن هانئ لممدوحه، نحن متحالفان فيما بيننا نتشارك كلّ المصائب والصعاب معًا، كما كانت تتحالف قبائل الجاهليّة فيما بينها.

(ويشجب) الذي ضرب به المثل ابن هانئ ووظّفه في قصيدته هذه هو: يشجب ابن يعرب بن قحطان، جدّ جاهليّ يمانيٌّ قديم، هو أبو سبأ الذي منه كهلان وحمير[31].

وفي نفس القصيدة نجد توظيفًا آخر للشّاعر ابن هانئ، وظّف من خلاله لشخصيّة تاريخيّة معروفة ومشهورة في الجاهليّة، فيقول [الكامل]:

المانعينَ حِماهم وحِمى النّدى *** وحِمى بني قحطانَ أن يُتَهّبا
هم قطّعوا بأكفّهمْ أرحامَهُمْ *** غَضبًا لجارِ بُيوتِهم أن يغضَبا
ووفَوْا فلم يدَعوا الوفاءَ لجارهم *** حتى تشتّتَ شملُهُمْ وتخرّبا
لولا الوفاءُ بعَهدهمْ لم يفتِكوا *** بكُليبِ تغلِبَ بين أيدي تغلِبا
يومَ اشتكى حرَّ الغليل فقيلَ قد *** جاوزتَ في وادي الأحصّ المشربا

وفي استمرار الشّاعر بمدحه لممدوحهِ، والطّريقة الّتي جاء بها الشّاعر ابن هانئ في كيفيّة بيان الصّلة الحميميّة والقويّة بينه وبين قبيلة الممدوح، استمرّ كذلك بضربه الأمثال من التّراث القديم لإيصال فكرته للممدوح في بيان مدى حبّه وتمسّكه به، كونه ملكًا وقائدًا شجاعًا، وأنّه معجب به لهذه الصّفات الحميدة، واتّخذ مثله هذه المرّة من العصر الجاهليّ، هو شخصيّة كليب أخو المهلهل بن ربيعة، والسّبب في اختيار الشّاعر لهذه الشّخصيّة التّاريخيّة يعود لعدّة أسباب منها، أنّ كليبًا بن ربيعة بن الحارث بن مرّة التّغلبيّ الوائليّ سيّد الحيّين (بكر وتغلب) في الجاهليّة، كان واحدًا ممّن تشبّهوا بالملوك في امتداد السّلطة، فكان شخصًا ملكًا جعل للعرب العدنانيّة سلطةً على الجزيرة العربيّة بعد سنين طويلة من السّيطرة

[31] ديوان ابن هانئ، ص48.

القحطانيّة[32]. والسبب الآخر لضرب المثل في التحام القبائل مع قبيلة تغلب وخصوصًا القبائل المتحالفة معها في أخذ ثأر كليب بعد مقتله في حرب البسوس.

وفي قصيدة أخرى وظّف الشّاعر ابن هانئ شخصيّة تاريخيّة أخرى من عصر الجاهليّة، أيضًا في قصيدة يمدح فيها جعفر بن علي الأندلسيّ ويهنئه بأخذ قلعة كتامة فيقول [الطويل]:

وكانت شجًا للملكِ سِتّينَ حِجّةً *** وما طيبُ وصلٍ لمْ يكنْ قبلهُ صدُّ
بها النارُ نار الكفرِ شُبَّ ضِرامُها *** ولو حجبتْ في الزندِ لاحترقَ الزُّند
فمنْ جمرةٍ قدْ أطفئتْ مخلديةٍ *** وأُخرى لها بالزّابِ مذ زمَنٍ وَقْد
يقابلُ منكَ الدّهرُ فيها شبيهَ مَا *** وفي هذه مَكنُونُ ما لم يكن يبدو
وعادَ لها الدّاءُ القديمُ فأصبحتْ *** بها نافضٌ منه وليس بها ورد
وكَف على بحرٍ إلى اليوم موجُهُ *** فليس له جزرٌ وليس له مدُّ
وعادتْ بهم حرب الأزارق لاقحًا *** وإن لم يكن فيها المهلّبُ والأزد
حوادثُ غلبٌ في لؤيّ بن غالبٍ *** وخَطْبٌ لعَمرُ الله في أدَدٍ إدُّ

ففي هذه القصيدة نجد أنّ التّوظيف جاء بأكثر من شخصيّة قديمة هما: لؤي بن غالب وأدَدٍ، ومثل هذا التّوظيف هو التّأكيد على أصالة هذا الحاكم من حيث كونه عربي الأصل، وأنّ أجداده قد سبقوه في الحكم والقيادة للجيوش الكبيرة الّتي تغزو البلاد غربًا وشرقًا وتكرّس تلك الغزوات بالانتصارات الكبيرة، فلؤي بن غالب هو: لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، الجدّ الثّامن للنّبي محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)[33]، يقول عنه محقّق الدّيوان: جدّ جاهليّ من سلسلة النّسب النّبويّ كنيته أبو كعب، كان التّقدم في قريش لبنيه وبني بيته، وهم بطون كثيرة وتاريخهم حافل ضخم[34].

[32] م. ن، ص49.
[33] سيرة ابن هشام، ص1/ 100.
[34] ديوان ابن هانئ، ص100.

وأدد: هو أدد بن زيد بن يشجب بن عريب الكهلاني من قحطان، جدّ جاهليّ بنوه طيء والشّعريّون ومذحج، ومرّة[35].

وفي توظيف آخر لشخصيّة جاهليّة كانت مرموقة في عصرها، إلى أن أصبحت مثلًا يحكى في قصيدة أخرى لابن هانئ يمدح الأميرين ظاهرًا وأبا عبد الله الحسين ابني الإمام المنصور بالله وهما أخوا المعزّ لدّين الله يقول فيها [الرمل]:

بجِيادٍ في الوَغى صافِنَةٍ *** تَفحَصُ الهامَ وأُخرى في الطِّرادِ
وإذا ما ضَرَّجُوهَا عَلَقًا *** بَدَّلوا شُهْبًا بشُقْرٍ وَوِراد
وإذا ما اختَضَبَتْ أيديهِمُ *** فَرَّقوا بينَ الأسارى والصِّفاد
تلكَ أيدٍ وَهَبَتْ ما كسَبَتْ *** للمعالي من طريفٍ وتِلاد
هم أماتُوا حاتمًا في طيِّءٍ *** مَيْتَةَ الدَّهْرِ وكعبًا في إياد
وهُمُ كانوا الحيا قبل الحيا *** وعِهادَ المُزنِ من قبل العِهاد
حاصَرُوا مكَّةَ في صُيّانَةٍ *** عَقَدوا خيرَ حبىً في خيرِ ناد[36]

كعب: هو كعب بن مانع بن ذي هجن الحميريّ، أبو إسحاق، تابعيّ، كان في الجاهليّة من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر وقدم المدينة في خلافة عمر (رضي الله عنه)، وأخذ عنه الصّحابة وغيرهم كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسّنّة عن الصّحابة، وخرج إلى الشّام فسكن حمص، وتوفّي فيها، عن مائة وأربع سنين، وكان ذلك سنة 32هـ[37]. وكان عالمًا بالإسرائيليّات وتفسير آيات القرآن الكريم، وكان كاتبًا ويسمّى بـ(الحبر)[38].

واستعمل الشّاعر هذا التّوظيف لشخصيّة اشتهرت بكونها علمًا في عصره وكذلك عاش من العمر ما مكّنه من معرفة الكثير من الأشياء والمعلومات، وحتى أصبح ممن تؤخذ منه الرّوايات، فهو بذلك أراد إضافة معنى لممدوحه في قصيدته هذه، بأن يشبّه هذا الشّخص بذاك العالم، فهو لا يختلف عنه شيء في علمه

---

[35] م. ن، ص101.
[36] ديوانه، ص108.
[37] ديوانه، ص108.
[38] طبقات ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، ص7/ 117.

وقوّته في المعارك، فإن كان قومهم قد أماتوا هذه الشخصيّة كما شخصيّة كعب أو حاتم الطّائي، إلّا أنّك لن تموت في قومك، حتّى بعد وفاتك فستظلّ ذكراك موجودة على مرّ العصور، نتيجة لأفعالك الكريمة الّتي تحقّقها في قومك، وكذلك انتصاراتك في المعارك والبلاد الّتي تفتحها بقوّتك وقوّة جيشك، وفي قصيدة أنشدها ابن هانئ في مدح الخليفة المعزّ لدين الله بالمنصوريّة ذاكرًا فيها فتح مصر على يد القائد جوهر بن عبد الله الرّوميّ، أبو الحسن، القائد، باني القاهرة، والجامع الأزهر، كان من موالي المعزّ العبيديّ[39]. يوظّف الشّاعر في هذه القصيدة التّراث الجاهليّ في هذه القصيدة بصورة كبيرة وكثيرة جدًا ونوعز ذلك لأهمّية هذه القصيدة المدحيّة، لكونها في مدح خليفة وقائد عسكريّ امتاز بالشّجاعة والإحسان حتّى يذكر بأنّه لم يبقَ شاعر إلّا رثاه وقد توفّي سنة 381هـ، فلهذا كان ابن هانئ يؤصّل قصيدته المدحيّة هذه بأكثر عدد ممكن من التّاريخ والشّخصيّات التّاريخيّة الكبيرة لتناسب في مقامها مقام الشّخصين الممدوحين في هذه القصيدة، فيقول [الطويل]:

أتدرونَ مَن أزكى البريّةِ منَصِبًا *** وأفضلُها إنْ عُدِّدَ البذْوُ والحضْر
تَعالَوا إلى حُكّام كلِّ قَبيلةٍ *** ففي الأرض أقيالٌ وأنْديةٌ زُهْر
ولا تَعْدِلوا بالصِيدِ من آلِ هاشمٍ *** ولا تترُكوا فِهرْ ًا وما جمعَتْ فِهْر
فجيئوا بمن ضَمَّتْ لُؤيُّ بن غالبٍ *** وجيئوا بمن أدتْ كِنانَةُ والنَّضْر
ولا تَذَرُوا عليا مَعَدٍّ وغيرِهَا *** لِيُعْرَفَ منكم مَن له الحقُّ والأمر
ومن عجَبٍ أنَّ اللسانَ جرَى لهمْ *** بذكرٍ على حين انقضَوا وانقضى الذكر
فبادُوا وعفّى اللهُ آثارَ مُلكِهِمْ *** فلا خَبَرٌ يلقاكَ عنهمْ ولا خُبْر[40]

فكما رأينا في هذا الجزء من القصيدة الّتي أنشدها ابن هانئ في ممدوحه، واستعان بالكثير من الشّخصيّات التّاريخيّة الجاهليّة، ولن أتكلّم عن قبيلة (فهر القريشيّة) الّتي ذكرها الشّاعر، لأنّنا سنعرّج عليها في مواضع أخرى من هذه الرّسالة، وأمّا عن لؤي بن غالب – فتكلمنا عنه سابقًا – ومن سنتكلّم عنه هو الشّخصيّة (معد) الذي وظّفه الشّاعر في قصيدته، وهو: ابن عدنان بن أدّ بن أدد بن الهميسع، من أحفاد إسماعيل، جدّ جاهليّ من سلسلة النّسب النّبويّ، كان النّبيّ (ﷺ) إذا انتسب فبلغ عدنان أمسك، وقال (كذب

[39] ديوان ابن هانئ، ص124.
[40] ديوانه، ص127.

النّسّابون)، فلا يتجاوزه[41]. وهو الجدّ التاسع عشر للنّبيّ محمّد (ﷺ)، وكان يكنّى بأبي قضاعة[42]. وفي قصيدة لنفس الشّاعر يمدح فيها أيضًا القائد جعفر بن علي، نجد أثر التّراث الجاهليّ القديم واضحًا وجليًا بصورة كبيرة، فيقول في هذه القصيدة [الكامل]:

إنّا لتجمعُنا وهذا الحيَّ من *** بَكْرٍ أذِمَّةُ سالِفٍ لم تُخْفَرِ
أحلافُنَا فكأنّنَا منْ نِسْبَةٍ *** ولِداتُنا فكأنّنَا منْ عُنصُر
اللاّبِسينَ من الجِلاد الهَبْوَ ما *** أغناهُمُ عن لأمَةٍ وسَنَوَّر
لي منْهُمُ سيْفٌ إذا جَرَّدْتُهُ *** يومًا ضرَبْتُ به رِقابَ الأعصُر
وفتكتُ بالزَّمَنِ المُدجَّجِ فتْكَةَ ال *** بَرّاضِ يومَ هجائن ابنِ المُنذر
صَعْبٌ إذا نُوَبُ الزمان استصعبتْ *** مُتَنَمِّرٌ للحادثِ المُتَنَمِّر
فإذا عَفَا لم تَلْقَ غيرَ مُمَلَّكٍ *** وإذا سطا لم تَلْقَ غيرَ مُعفَّر
وكفاكَ من حُبِّ السماحَةِ أنّهَا *** منه بموضع مُقلةٍ من مَحْجِر
فغمامُهُ من رحمَةٍ وعِراصُهُ *** من جَنّةٍ ويمينُهُ من كوثر[43]

–**البراض** الذي ذكره ابن هانئ في قصيدته هذه، هو: البراض بن قيس بن رافع الضمريّ الكنانيّ، فاتك جاهليّ يُضرب بفتكه المثل، تبرّأ منه قومه ففارقهم وقدم مكّة، ثم رحل إلى العراق، وبسببه هاجت حرب الفجار بين خندق وقيس، مات نحو سنة 35 ق.ه[44].

والتوظيف هنا الذي جاء به ابن هانئ في قصيدته واضح جدًا، فكان يقصد من هذا التّوظيف هو بيان قوّة هذا القائد العسكريّ الذي ضرب وفتك بالأعداء فتكًا وانتصر عليهم في معاركه، كما كان يفعل البراض في فتكه، فضرب مثلًا بالبراض من التّراث القديم، ليأصّل قصيدته في بيان شجاعة ممدوحه.

وكما كان لابن هانئ الأندلسيّ توظيفات كثيرة لأثر التّراث الجاهليّ في شعره واستغل هذا التّوظيف في قصائده المدحيّة، ليضفي عليها نوعًا من الأصالة، وكذلك الاعتزاز بالماضي، ولتأكيد معنى قصائده في تثبيت

---

(41) م. ن، الصفحة نفسها.
(42) سيرة ابن هاشم، ج207/1.
(43) ديوانه، ص153.
(44) الزركلي: الأعلام، ص215/5، وديوان ابن هانئ، ص153.

صفات ممدوحيه، سننتقل الآن إلى الشّاعر ابن دراج القسطليّ، وكيف استفاد من أثر التّراث الجاهليّ في قصائده المدحيّة، ففي قصيدة يمدح فيها المنصور منذر بن يحيى، عند انصرافه عن بنبلونة وهي عاصمة مملكة البشكنس أو مملكة نبرة، الّتي يقول فيها [البسيط]:

مُجهِّزًا فِي سبيلِ اللهِ جَيشَ هُدىً *** السَّمعُ والطَّوْعُ للمنصورِ من عُدَدِهْ
لمنْ بنى قُبَّةَ العَليا نَدىً ووَغىً *** فأَصبحَ المُلكُ مرْفوعًا عَلَى عُمُدِهْ
مُوَرَّثِ المُلكِ من عُليا تَبابِعِهِ *** والسَّيفِ من عَمْرِهِ والسَّيب من أُدَدِهْ
والنَّصْرِ من سَعيِ أَعمامٍ لَهُ فُطرُوا *** لِنَصرِ ذي العَرْشِ فِي بَدْرٍ وَفِي أُحُدِهْ
مُشَدِّدًا عُقَدَ الإِسلامِ إِنْ نُكِثَتْ *** ولا تَحُلُّ خطوبُ الدَّهرِ من عُقَدِهْ[45]

فالتّوظيف عند ابن دراج من اعتزازه بالتّراث القديم وليثبت في معنى قصيدته أنّ ممدوحه عربيّ الأصل يرجع في أصله إلى الجدود القدامى، وليس أي جدّ، بل ما كان منهم ملكًا وسيّدًا على قومه، وأنّه قد ورث هذا المُلك والقيادة والرئاسة من هؤلاء الأجداد، فهو لم يتولّ الزّعامة من فراغ، بل هو حفيد لأجداد ملوك كانت لهم العزّة والحكم والسّيادة، وإنّ هؤلاء الأجداد الذين كان ممدوح ابن دراج ينتمي إليهم هم: عمرو بن معدي كرب الزّبيديّ الفارس المشهور، الذي كان له سيف يسمّى الصّمامة، اشتهر بالشّجاعة والفروسيّة حتّى لقّب بفارس العرب، ودخل الإسلام، وشارك في معارك الفتح الإسلاميّ في عهد الخليفتين أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)[46].

وأدد – فقد عرّفنا به فيما مضى من هذه الصّفحات – ولهذا كلّه يبيّن ابن دراج أنّ ممدوحه قد ورث السّيف ويقصد بها الشّجاعة في المعارك والانتصارات في المعارك بسيفه من جدّه عمرو بن معدي، وقد ورث الملك والنّسب الصّالح والذّريّة الّتي نشأت على الشّجاعة والكرم من جده أدد.

وله قصيدة أخرى يمدح فيها الحاجب سيف الدولة عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر، وأيضًا يوظّف فيها لنفس الشخصيّة التّاريخيّة عمرو بن معد الفارس الذي تكلّمنا عنه سابقًا، وكان الشّاعر ابن دراج معجبًا جدًا بالأخبار الّتي تناقلتها العرب عن هذا الفارس المغوار، والأخبار الّتي تناقلت عن سيفه الصّمامة

[45] ديوانه، ص146.

[46] الحميري، نشوان: منتخبات من أخبار اليمن، صححه عظيم الدين أحمد، ص62، 63.

وانتصاراته أيّام الجاهليّة وكذلك أيّام الإسلام والفتوحات الإسلاميّة فجعله مضربًا للأمثال في قصائده المدحيّة الّتي قالها ابن دراج بحق ممدوحيه، فقال في هذه القصيدة [الكامل]:

مَلِكٌ تَحَكَّمَ فِي هواهُ حَزْمُهُ *** وأَباحَ سيفُ نداهُ مُهْجَةَ حَزْمِهِ
وطما عَلَى العافِينَ بحرُ سماحِهِ *** فحوى الثناءَ بِطِمّهِ وبِرِمّهِ
والحلْمَ من ميراثِ أَحْنَفَ خالِهِ *** والبأْسَ من ميراثِ عَمْرِو عَمّهِ
بأْسٌ تميدُ الأَرْضُ من رَوْعاتِهِ *** ذُعْرًا وَتَنْهَدُّ الجِبالُ لِعَزْمِهِ
مُتَقَحِّمُ الأَهوالِ فِي ضَنْكِ الوغى *** فكأن نفسَ عدُوِّهِ فِي جِسْمِهِ(47)

وأراد الشّاعر التّذكير بنسب المظفّر بن المنصور بن أبي عامر، وأنّ عمومته في بني معافر اليمنيّين.

وفي قصيدة يمدح فيها عبد الملك المظفّر، يستخدم شخصيّة أخرى في توظيفه للتّراث، فيقول [الطويل]:

ومحط أرحال المنى بموارد *** رحب على الوراد عذب مراحِها
ومنابت العز الذي عمرت به *** في الدهر شم إكامها وبطاحها
ومعاقد التيجان فوق مفارق *** بهرت إياة الشمس من أوضاحها
والبأس ملء صدورها *** والحلم حشو برودها والجود موطن راحها
حكمت لها مضر على ساداتها *** يوم افتخار أحيحة بن جلاحها
خصت بتعليم الأذان فنوديت *** في نومها بصلاحها وفلاحها
واستقرض الرحمن جنة خلده *** ببتات حائطه أبو دحداحها(48)

-**أبو عمرو** هو أحيحة بن الجلّاح الأوسيّ كان من فرسان يثرب، وأشرافها في الجاهليّة، وهو شاعر جاهليّ من دهاة العرب وشجعانهم(49). فلهذا اختاره ابن دراج في قصيدته ليثبت أنّ ممدوحه يتمتع بالشّجاعة والقوّة وكونه فارسًا شجاعًا، وأنّ العرب ويقصد بهم عرب الأندلس عليهم أن يحتفلوا به كما كانت العرب تحتفل بعمرو أحيحة بن الحلّاج.

(47) ديوانه، ص165.
(48) ديوانه، ص382.
(49) الزركلي: الأعلام، وديوان ابن دراج، تحقيق: محمود علي مكي، ص382.

وفي قصيدة أخرى وظّف الشّاعر ابن دراج القسطليّ لكعب بن مامة الأيادي وهو كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الأيادي ويكنّى أبو فؤاد، هو عربي عاش قبل الإسلام، ولجوده وحسن جواره أصبح يضرب به المثل، فكان يحمي جاره، ويعطيه من القوت إن كان معسور الحال، وله قصّة مشهورة مع أبي داؤود الأيادي حين جاوره، متى أصبحت العرب إذا حمدت جارًا قالوا (كجار أبي داؤود).

فابن دراج أحد الذين ضربوا المثل بهذا الشّخص في قصيدة مدح فيها بعض رؤساء الكتاب، وخصوصًا في قصة كعب مع جاره أو رفيقه النّمريّ، حيث أثار كعب رفيقه النّمريّ بالماء، حتّى مات عطشًا ونجا النّمريّ، فيقول في قصيدته في مدح هؤلاء الكتاب، بأنّهم كرماء جدًا وأجاويد، بحيث يقول لو أنّه أصبح كعب هو النّمريّ، بحيث يفيدهم بحياته، ولا يوافيهم، حيث يكرمون النّاس ويفضّلونهم على أنفسهم، ويعطون ما لديهم إلى النّاس، حتّى لو كلّفهم ذلك حياتهم، فهم لا يفضّلون العيش في هذه الدّنيا وجارهم أو حتى من لا يعرفونهم من النّاس فقراء لا يجدون قوت يومهم أو عندما يجدون أنّ هناك خطر ما يهدّد حياة النّاس الذين يعتبرون أنفسهم المسؤولون عن حياتهم وتوفير القوت اللّازم لهم والأمان، فيقول ابن دراج [المتقارب]:

وأنتَ غفرتَ ذنوبَ الزمانِ *** إليّ وكفَّرتَ عندي أثامَهْ
فإن ذكَّرتني ليالي المُقامِ *** لديكَ نعيمًا بدارِ المقامَهْ
فكم لُجّ بحرٍ وضحضاحِ قفرٍ *** تمثَّلَ لي فيه هولُ القيامَهْ
لياليَ أُمسي صدى قفرَةٍ *** أجولُ الفلا بينَ غولٍ وهامَهْ
مُعنّىً بأفلاذِ قلبٍ حوامٍ *** تُباري إلى كلّ ماءٍ سمامَهْ
وكلُّهُمُ نَمِرِيٌّ وإنّي *** لكُلِّ هنالكَ كعبُ بنُ مامَهْ
وأعذَرَ مُبلِغُهُم حيثُ ألقَوا *** عَصِيَّ النوى ورحالَ السآمَهْ
وأُنسوا ببَحرِكَ مَوجَ البحارِ *** ومَيدَ السفين بها وارتِطامَهْ (50)

فيما سبق وجدنا أنّ شعراء الأندلس قد وظّفوا شخصيّات تاريخيّة قديمة في قصائدهم المدحيّة، وكيف ضرب الشّعراء الأندلسيّين المثل بشخصيّات اشتهرت في وقتها بصفات معيّنة كالشّجاعة، والقوّة، والجود، والكرم، وغيرها من الصّفات الّتي مكّنتهم من أن يكونوا مضربًا للأمثال في العصور الّتي جاءت بعد عصرهم.

(50) الزركاني: الأعلام وديوان ابن دراج، تحقيق: محمود علي مكي، ص118.

- **توظيف أسماء القبائل:**

وسنرى الآن كيف وظّف شعراء الأندلس التّراث القديم المتمثل بالقبائل العربيّة الّتي سكنت شبه الجزيرة العربيّة في العصر الجاهليّ، دون ذكر أيّ شخص بالاسم ممّن كانوا يمثّلون تلك القبائل، بل ذكر الشّعراء القبائل برمّتها دون الاستعانة بشخص معيّن، ومن هؤلاء الشّعراء، الشّاعر الأندلسيّ ابن هانئ الأندلسيّ، يذكر في قصيدة يمدح فيها الخليفة المعزّ لدين الله، ذكر فيها اسم قبيلة فهر وهي من قريش، قبيلة فهر القريشيّة إذ قال [الطويل]:

أَسَرْتُمْ قُرومًا بالعراق أعِزَّةً *** فقد فُكَّ من أعناقهم ذلك الأسرُ
وقد بزَّكم أيامَكُم عُصَبُ الهُدى *** وأنصارُ دينِ اللهِ والبِيضُ والسُّمر
ومُقْتَبَلٌ أيامُه متهلِّلٌ *** إليه الشبابُ الغَضُّ والزَّمنُ النَّضر
أدارَ كما شاءَ الوَرَى وتحيَّزَتْ *** على السّبعةِ الأفلاكِ أنمُلُه العَشر
أتدرونَ مَن أزكى البريّةِ منَصِبًا *** وأفضلُها إنْ عُدِّدَ البدْوُ والحضْر
تَعالَوا إلى حُكّام كلِّ قَبيلةٍ *** ففي الأرض أقيالٌ وأنْديةٌ زُهْر
ولا تَعْدِلوا بالصِيدِ من آلِ هاشمٍ *** ولا تتْرُكوا فِهرًا وما جمعَتْ فِهْر
فجيئوا بمن ضَمَّتْ لُؤيُّ بن غالبٍ *** وجيئوا بمن أدتْ كِنانَةُ والنَّضرْ[51]

فالشّاعر هنا ذكر فهر وهي قبيلة من أصل قريش واسم أحد جدودها، وهو فهر بن مالك بن النّضر، من كنانة، من عدنان، كنيته أبو غالب، وكان رئيس النّاس بمكّة، وهو جماع قريش في قول هشام، وكان قائد كنانة، ومن انضمّ إليها من مضر وغيرها في قتالهم لحسّان بن عبد كلال الحميريّ، حين أغار على الحجاز بجيش من اليمن يريد نقل حجر الكعبة إلى اليمن، لتحويل الحجّ إلى بلاده، فظفر فهر ومن معه وهزمت حمير[52].

وفي قصيدة قالها ابن هانئ في مدح الخليفة المعزّ وقيل إنّ هذه القصيدة أوّل ما أنشده بالقيروان وأنّه أمر له بَدستِ قيمته ستّة آلاف دينار فقال له: يا أمير المؤمنين! ما لي موضع يسع الدّست إذا بسط،

[51] ديوانه، ص126.

[52] سيرة ابن هشام، ص205/1. وديوان ابن هانئ الأندلسيّ، ص126.

فأمر له ببناء قصر فغرم عليه ستّة آلاف دينار وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدّست قيمتها ثلاثة آلاف دينار[53] [الكامل]:

وَرَمَى إلى البَلَدِ الأمينِ بطَرْفِهِ *** ملِكٌ على سِرّ الإلهِ أمِينُ
لم يَدْرِ ما رَجْمُ الظّنونِ وإنّما *** دُفِعَ القضاء إلَيْهِ وهو يقين
كذبتْ رِجالٌ ما ادعتْ من حقّكم *** ومن المَقال كأهْلِهِ مأفون
أبَني لؤيٍّ أينَ فَضْلُ قديمِكم *** بل أينَ حِلْمٌ كالجِبالِ رَصين
نازَعْتُمُ حَقّ الوصيّ ودونَهُ *** حَرَمٌ وحِجْرٌ مانِعٌ وحَجون
ناضَلتُموهُ على الخِلافةِ بالّتي *** رُدّتْ وفيكمُ حَدُّهَا المسنونُ[54]

ففي هذه القصيدة يوظّف الشّاعر ابن هانئ في قصيدته المدحيّة قبيلة قريش، فيخاطبهم باسم جدّهم الأوّل ابن لؤي، ويذكره كأنّه ذكر قبيلة قريش أجمعها، في نوع من التّأصيل لممدوحه الخليفة المعزّ، وبأنّه قد سبق بعصره كلّ العصور القديمة والحديثة، بل يستغرب من قبيلة قريش الّتي كانت لها الزّعامة المطلقة في العصر الجاهليّ وما بعده، فيقول لهم أين أنتم وأين قديمكم من عهد، وقبيلة هذا الخليفة البطل الذي سار بعهده وعصره إلى القمة في الرّقي والتّحضّر، وكذلك في الحضارة والازدهار.

ولابن دراج القسطليّ في قصيدته الّتي يمدح فيها خيران العامريّ، يوظّف لقبيلة كانت تسكن في شبه الجزيرة العربيّة في العصر الجاهليّ، فيقول [الطويل]:

تَقَلَّدَ سَيفَ اللهِ فينا بحَقِّهِ *** فَبَرَّتْ عُهودٌ بالوفاءِ وَأَيْمَانُ
وحَلَّى بتاجِ العِزِّ مَفرِقَ مُخبتٍ *** يُقَلّبُهُ داعٍ إِلَى اللهِ دَيَّانُ
وبالخيْرِ فَتَّاحٌ وبالخَيْرِ عائدٌ *** وبالخَيْلِ ظَعَّانٌ ولِلخَيلِ طَعَّانُ
فقُضَّتْ سُيوفٌ حارَبَتْهُ وأَيْمنٌ *** وشاهَتْ وُجُوهٌ فاخَرَتْهُ وتيجانُ
لَهُ الكَرَّةُ الغَرَّاءُ عنْ كُلِّ شَارِدٍ *** أَضَاءَتْ لَهُمْ منها دِيارٌ وأَوْطَانُ
وَرَدَّ بِهَا يَوْمَ اللّقاء زِنانَةً *** كما انْقَلَبَتْ يَومَ الهَباءةِ ذُبيانُ
بِكُلِّ كَمِيٍّ عامِرِيٍّ يسوقُهُ *** لحرِّ الوَغى قَلبٌ عَلَى الدِّينِ حَرَّانُ[55]

[53] ديوان ابن هانئ، ص314.
[54] م.ن، ص319.

ذكر الشّاعر ابن دراج قبيلة ذبيان الّتي كانت من القبائل المعروفة في العصر الجاهليّ، لها معارك وحروب مع باقِ القبائل العربيّة، وذكر الشّاعر بالتّحديد يومًا من أيّام ذبيان في الجاهليّة وهو يوم من أيّام حروبها يسمّى بيوم (الهباءة)، وهو يوم لعبس على ذبيان، اجتمعوا فالتقوا في يوم قائظ إلى جنب جعفر الهباءة واقتتلوا من أوّل النّهار إلى أن انتصف، وحجز الحرّ بينهم، إلى أن استغلّ بنو عبس هذا الشّيء فظفروا ببني ذبيان، وانتصروا عليهم[56]، بعد سجال طويل دار بينهم فاستغلّ ابن دراج هذه المعركة وما حدث فيها في قديم الزّمان، ليوظّفها بما يعزّز معنى قصيدته في مدح ممدوحه، وبيان دهائه في المعارك واستغلال الفرص بذكاء لينتصر في المعارك، كما فعل بنو عبس ببني ذبيان.

وفي قصيدة أخرى يمدح الشّاعر ابن دراج المنصور منذر بن يحيى قال فيها [الكامل]:

أَسَدٌ حَطمْتَ سِلاحَهُ فتركْتَهُ *** بالبيدِ لا ظَفَرٌ ولا أَظفارُ
رَهنًا بإلقاءِ اليدَيْنِ لقاهِرٍ *** أَعلى يَدَيهِ الواحِدُ القهَّارُ
مَلِكٌ كَأَنَّكِ يَا مَحاسِنَ فِعلِهِ *** من سَيِّئاتِ زمانِكَ استغفَارُ
خُصَّتْ بِهِ سَبأٌ وعُمَّ بنصْرِهِ *** عُليا قُرَيشٍ فِي الهُدى ونِزارُ
رَبذُ القِداحِ من الرّماحِ وَمَا لَهُ *** إلّا السِّباعَ وطيْرَها أيسارُ
ونديمُ بيض الهِندِ يومَ دَمُ العدى *** خمرٌ لَهُ والمأْثراتُ خُمارُ
آياتُ نصْرٍ فِي الوَرى بسيوفِها *** أَمِنَ الهُداةُ وآمَنَ الكُفَّارُ[57]

الشّاعر ابن دراج في هذه القصيدة قد وظّف قبيلة هي أكبر القبائل المعروفة في العصر الجاهليّ وما بعده، وهي قبيلة قريش الّتي كانت سيّدة القبائل في الجاهليّة، وما بعد عصر الجاهليّة، وذكر الشّاعر بالتّحديد النّصر الذي حدث في سبأ وعمّ هذا النّصر عُليا قريش وكلّ قبائل نزار.

وفي قصيدة يمدح فيها المنصور أبي الحكم، فالتّوظيف هنا جاء بذكر أسماء لقادة وحكّام قبيلتين من القبائل الّتي سكنت شبه الجزيرة العربيّة في العصر الجاهليّ وكانتا من أهمّ وأكبر القبائل في ذاك العصر، والتي شغلت مساحة كبيرة منها بنفوذها، فيقول [الوافر]:

---

[55] ديوانه، ص91.

[56] النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ص4/ 195.

[57] ديوانه، ص154.

وَمَا زالا رَضِيعَيْها عَوَانًا *** وبِكْرًا ناشئَيْنِ ويافِعَيْنِ
فما كَذَبَتْ ظنونُكَ يومَ جاءا *** إِلَى أَمَدِ المكارِمِ سابقَيْنِ
ولا خابَتْ مُناكَ وَقَدْ أَنافا *** عَلَى رُتَبِ المعالي سامِيَيْنِ
ولا نُسِيَتْ عهودُ الحارِثَيْنِ *** ولا ضَاعَتْ وصايا المُنْذِرَيْنِ[58]

ويقصد الشّاعر هنا الحارثين هم بعض ملوك الغساسنة، فالحارث بن جبلة أهمّ ملوك الغساسنة، وتُعد أيّامه أزهى الأيّام الّتي مرّت بالغساسنة حيث امتدّ سلطانهم من بطرا إلى الرّصافة شمالي تدمر، ويقصد بالمنذرين أم ملوك المناذرة، وهم ملوك الحيرة من بني لخم، ويعود بها النّسّابون إلى أصل يمنيّ، وأزهى عصورهم عصر المنذرين ماء السّماء[59].

وجاء التّوظيف هنا بذكر اسمي قبيلتين بعد قبيلة قريش في الجاهليّة، ليوضّح لنا الشّاعر أنّه يصف فترة حكم هذا الممدوح هي أزهى وأهمّ العصور الأندلسيّة الّتي مرّت بهذه البلاد، كما كان لملوك الغساسنة والمناذرة أزهى العصور في تاريخهم.

وفي توظيف جديد وظّفه الشّاعر ابن هانئ الأندلسيّ، بعيدًا عن الشّخصيّات التّاريخيّة، وبعيدًا عن القبائل وفضائلها في العصر الجاهليّ، نراه قد وظّف لطبقة من طبقات المجتمع القريشيّ الّتي كانت جزءًا لا يتجزّأ من حياة الجاهليّة، وهي طبقة النّساء الإماء، فيقول ابن هانئ [الرجز]:

والسيْلُ ليسَ يحيدُ عن مُستنّهِ *** والسّهمُ لا يُدْلى به غُلَواءُ
لم يُشرِكوا في أنّهُ خَيرُ الوَرَى *** ولِذي البَريّةِ عندهُمْ شُركاء
وإذا أقرّ المشرِكونَ بفَضْلِهِ *** قَسْرًا فما أدراكَ ما الحُنفاء
في اللهِ يسري جودُهُ وجنُودُهُ *** وعَديدُهُ والعزْمُ والآراءُ
أوَما ترَى دُوَلَ الملوكِ تُطيعه *** فكأنّها خَوَلٌ لهُ وإماء
نَزَلَتْ ملائكةُ السماءِ بنصرِهِ *** وأطاعَهُ الإصْباحُ والإمساء
والفُلْكُ والفَلَكُ المُدارُ وسعدُهُ *** والغَزْوُ في الدّأماءِ والدّأماء[60]

---

[58] ديوانه، ص373.

[59] ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص44، 45.

[60] ديوانه، ص19.

فالتّوظيف هنا عند ابن هانئ جاء بنوع جديد، وهنَّ النّساء الإماء، وهنَّ كثيرات وكانت منهنَّ العاهرات اللّواتي يتخذن الأخذان، وقيّنات يضربن على المزهر وغيره في حوانيت الخمّارين، كما كانت منهنَّ جوار يخدمن الشّريفات وقد يرعين الإبل والأغنام، ولكن في منزلة دانية، وكان العرب إذا استولدوهنَّ لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن[61].

فالإماء هن النّساء اللّواتي يؤمرْنَ فَيجبْنَ دون اعتراض أو كلام، هنَّ متبوعات، عليهنَّ الخدمة فقط بكلّ أنواعها، لهذا ضرب ابن هانئ بهنَّ المثل في قصيدته، ليشبِّه دويلات الأندلس الباقية، أنّها تطيع ممدوحه هو الخليفة المعزّ لدين الله، فهو الملك والخليفة الأوّل، وكلّ من كان في الأندلس من ملوك وخلفاء هم مطيعون له ومنقادين بأمره، دون أن يُناقَشَ أو يُسألَ، كما كان حال نساء الإماء في العصر الجاهليّ، فهنَّ يخدمن من دون كلام أو تذمر.

المصادر والمراجع:

1) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود شاكر.
2) الأصفهاني، أبو فرج: الأغاني، نسب الطفيل الغنوي وأخباره، ص15/ 338.
3) الحميري، نشوان: منتخبات من أخبار اليمن، صححه عظيم الدين أحمد، ص62، 63.
4) ديوان ابن خفاجة الأندلسيّ، تحقيق: عمر فاروق الطباع، دار القلم للنشر، بيروت، لبنان، د.ت.
5) ديوان ابن دراج القسطليّ، تحقيق: محمود علي مكي، طبع على نفقة السمة العالم الجليل الشيخ بن عبد الله آل ثاني حفظه الله، ط1، 1961م.
6) ديوان ابن عبد ربّه، جمعه وصحّح خصوصه: محمد رضوان الداية، دار الفكر، ط3، دمشق، سوريا، 2003م.
7) ديوان ابن هانئ الأندلسيّ، اعتنى به وشرحه: حَمدو أحمد طماس، دار المعرفة للنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1426هـ -2005م.

[61] ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص72.

8) ديوان الشّنفرى، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربيّ، ط2، بيروت، لبنان، 1417هـ- 1996م.

9) ديوان النّابغة الذّبيانيّ، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلميّة، ط3، بيروت، لبنان، 1416هـ- 1996م.

10) ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، مصر، 1984م.

11) ديوان تأبّط شرًا، تحقيق: علي ذوالفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1404هـ- 1984م.

12) ديوان حاتم الطّائي، تحقيق: حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربيّ، ط1، بيروت، لبنان، 1994م.

13) ديوان علقمة الفحل، بقلم: أحمد صقر، المطبعة المحمودية، ط1، القاهرة، مصر، 1353هـ- 1935م.

14) الزوزني: شرح المعلقات السبع.

15) ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في الشّعر العربيّ، دار المعارف، ط7، القاهرة، مصر، د.ت.

16) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الجاهليّ، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت.

17) طبقات ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، ص7/ 117.